بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحلقة الثَّالثة والأخيرة

من محاضرات في مقرر المُعجِزة والإعجاز

المفهوم والمنزلة أهمية معرفة الإعجاز

لطلاب وطالبات السَّنة الثانية من المرحلة التمهيدية للتخصص (الماجستير) في البلاغة والنقد

المحاضر محمود توفيق محمد سَعد القاضي

مِن كتاب «إعجاز القرآن:الإعجاز في دراسات السابقين» للشيخ:عبد الكريم الخطيب. (ص ٨٧-١٥٠)

.....

المِحور الحادي عشر

اللغة العربية ومكانتها بين اللغات

في طَليعةِ سورة«الرحمن» يقول الحق - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) [سورة الرحمن]

أخبَر عن اسمه "الرّحمن" بثلاثة جملٍ كلّ جملة تحمل إنباءً بنعمة : جعل الأولى والثّالثة إنباء بنعمة التّعليم ، والثّانية إنباءٌ بنعمة خلق الإنسان.

كان مقتضى الظاهر أن يقال في غير القرآن خَلقَ الإنسانَ علمه البيانَ علمه القرآن على نسق التّحقق الزمنيّ

عدل البيانِ القرآن عن مقتضَى ذلك الظّاهِر فأقامَ نعمةَ خلقِ الإنسانِ بيْن نِعمتَيْ تعليمٍ ، وجعلَ النّعمةَ الأُولَى تعليمَ القرآنِ، والنّعمةَ الأخيرةَ نعمةَ تعليمِ البيانِ، فجعلَ نعمةَ خلقهِ مكنوفةً بتَعليميْن : التّعليمُ الأوّل يحقّقُ له جلالَ وجمالَ مكنوزِه المَعرفي «القرآن» .

والتَّعليمُ الثَّاني يحقّق له الإبانَة فهْمًا وإفهامًا عن هذا المكنونِ الجليل المستمد من القرآن . فيفهمُك أنّ كمالَ وجودِك الإنسانيّ يَتحقّق بهذَيْن : تعلّم القرآن وتعلّم البيان فهْمًا وإفْهامًا.

وَنَقصُ المرءِ في إنسانيتِه مُرْتَهَنٌ بنقصِه فِي عِلمِه بالقرآنِ وعلمِه بالبيانِ ، ممّا يجعلُ المجاهدةَ فِي تحقيقِ كمالِ هذين العِلمين فريضةَ وُجودٍ.

فكأنَّ هذَيْن التّعليمين :«تعليمِ القرآن»و«تعليمِ البيان » للإنسانِ كالجناحيْن بالنّسبة للطائرِ .

أفيكونُ طائرٌ بجناحٍ واحدٍ، كذلك أنْت لا تكونُ إنسانًا كميلًا بأحدِ التّعلمين، فكيف بالّذي فَقَدَهما معًا؟!!!!

فَلْيَنْظُرْ كُلّ فِي حَظِّهِ مِن العِلْمَيْنِ ؛ لِيعلمَ حَظّه مِن وجودِه الآدميّ.

ولَن يُتقِن البيانَ إلّا مَن كان مِن أهلِ القرآنِ ، ولَن يكونَ المَرءُ مِن أهلِ القرآنِ إيمانًا وترتيلًا وتفهُّمًا وتأدبًا ودعوة إلى الله تعالى إلا بالبيان ، فهما مترادفان علو مقامك في تعلم القرآن يحقق لك علو مقامك في علم البيان وعلو مقامك في علم البيان يصاعد بك في سماواتِ أهل القرآنِ : أهلِ الله وخاصّته.

روى ابن ماجه في مقدمة السنن،وأحمد في المسند والحاكم في المستدرك والدامي في سننه كلٌّ بسنده عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- :« إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ ». قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ : «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ، وَخَاصَّتُهُ ».

هذه الآياتُ مِن سورةِ «الرّحمَن» برهانٌ على أنّ جميع أجناسِ البشر لهم لغةٌ يتكلمون بها، وبيانٌ يَفهَمون ويُفهِمون به، فليست قبيلَة أو أمّةٌ إلّا ولها لسانها ، وهم إذا ما اتفقوا في تحقُّقِ ذلِك ، فإنّ ألسنتَهم متفاوتةٌ في المنزلة.

والله - جَلّ جلالُهُ – قد أنبأ في طليعة سورة إبراهيم - عَلَيْهِ السّلامُ – أنه يُرسِل رسولَ كلّ قوم بلسانِهم (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[إبراهيم:٤]

ولسانُ كلّ قوم مصوّرٌ حقيقتَهم الفكريّة والشّعوريّة، والسُّلوكيّة، فإنْ أردتَ أنْ تعرف شأنَ قوم فكرًا وشعورًا وسلوكًا ، فَمَعدِنُ ذلك لسانُهم ، فليس اللّسانُ صَوتًا أجرد، إنّما هو مرآةٌ لِما يَعتمِلُ فِي صدرِ صَاحبِه مِن الفكرِ والشُّعور ، وقد قيل «إنّما المَرءُ بأصغرَيْه: قلبِه ولسانِه » فكيف يكونُ مَن كانَ في قلبِه «القرآنُ» وكان لسانُه «اللسانَ العربيّ »؟!

*****

أبو الفتح عثمان بن جنّيّ الموصليّ الرّوميّ (المتوفى: ٣٩٢هـ) حين أراد أن يصنعَ كتابًا في اللّسانِ العَربيّ وهو الّذي يُتقِن اللّسانَ العربيّ واللّسانَ الرُّوميّ واللّسانَ الفارسيّ سماه «الخصائص» فظاهر ذلك الاسم أنّه كتاب في خصائص اللسان العربي، وذلك حقٌّ وفي الوقتِ نفسِه حقيقتُه حين تتبصّر ما جاء في كتابه من تبيين لخصائص هذا اللسان توقن أنّه كتاب في خصائصِ الإنسانِ الّذي يَتكلّم العربية، فأنت بِملكِك أن تستقرئَ خصائصَ الإنسانِ العربيّ من خلالِ خصائصِ لسانِه ، والعروبةُ ليستْ عروبةً نوع بشري «نَسب»، بل هِي عروبةُ حسبٍ :عروبةَ لسانٍ ؛ لأنّ عروبةَ اللّسانِ انعكاسٌ لِعروبةِ الفكر والهَم الّذِي يعتلجُ في داخل هذا النّاطق بهذا اللسان العربيّ والسلوك الذي يعسْشُ به في النّاسِ . ([1])

ولمّا كان سيدُنا محمدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – رسولًا للنّاس كافة إلى يومِ القيامةِ وكان مقتضَى ظاهرَ الآيةِ أن يرسلَه بكلّ ألسنة البشر ، وكان هذا غيرُ مُتَعقلٍ كان حسنًا أن يصطفِي له أفضلَ الألسنة البشريّة ؛ لتكون أيسر على كلّ الأقوام تعلّمها ، فكان لسانُ قومِه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – : لسانَ العربِ هو الّذي اصطفَى . والحكمةُ تقتضي ألا يُصْطفَى إلّا ما كان هو الأمجدَ الأحمدَ الأكرمَ.

وكان لطيفًا حُسَيْنًا أن سمّي قومُه بذلك الاسم : العرب الدّالّ علَى أنّ سمْتَ قومِه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - الّذي يُميّزهم عن غيرهم من الأقوام البشريةِ أنّهم يُعربون عمّا في صدورِهم على نحوٍ لا يتحقّق مثلُه في غيرِهم من الأقوام، فكان اسمهم "العرب" آية على خصوصيتِهم.

وكأنّي بك لا تكادُ تجد اسمَ قومٍ غيرهم من بني آدم يدلّ اسمُهم على خصوصيتِهم البيانية.([2])

---

[1]) حقٌّ مكين مبين لنفسك عليك طالب علم البلاغة العربي أن يكون كتابُ الخصائص قرين كتاب دلائل الإعجاز وكتاب أسرار البلاغة،وكتاب المطول على مكتبك تقرأ فيها كل يوم قراءة منتظمة كلما فرغت من كتاب عدت إلى أوله كالحال المرتحل، فهذه الكتب الأربعة تعلمك العلم،وتعلمك منهاج النظر والتفكير ودقة التعبير .
احرص على ما ينفعك واستعن بالله تعالى ولا تعجز ، فإن ربك معينكا إن أحببت .

[2]) من الطريف أن مقابل كلمة «عرب»هو «عجم».{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}[النحل:١٠٣]
{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}[فصلت:٤٤]
روى أحمد في مسنده عَنْ أَبِى نَضْرَةَ حَدَّثَنِى مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِى وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِىٍّ عَلَى أَعْجَمِىٍّ وَلاَ لِعَجَمِىٍّ عَلَى عَرَبِىٍّ وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ ». قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ثُمَّ قَالَ « أَىُّ يَوْمٍ هَذَا ». قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ. ثُمَّ قَالَ « أَىُّ شَهْرٍ هَذَا ». قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ ثُمَّ قَالَ « أَىُّ بَلَدٍ هَذَا ». قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ « فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ». قَالَ وَلاَ أَدْرِى قَالَ أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لاَ «

قلتُ كلُّ قومٍ من البشريّةِ فِي كلّ عصرٍ ومِصر لهم لسانُهم الذي يتخاطبون به ،ولكل خصائصه وقواعده،ولكنها بشهادةَ من يتقنون كثيرًا من الألسنة لا ترقَى إلى ما ارتقت إليه العربية قبل نزول القرآن فكيف بها بعد نزول القرآن بها.

يقُول الشاعر حافظ إبراهيم

وَسِعْتُ كِتَابَ اللهِ لَفظاً وَغايَةً *وَما ضِقْتُ عَن آيٍ بِهِ وَعِظاتِ

ويقول أحمد شوقي:

إنّ الّذي ملأ اللّغات محاسنًا * جعل الجمال وسرّه في الضّاد

ولو أنك استقريْت ما قال غيرُ أهلِها عنها لرأيت ما لم تر مثله مقاله مجيدًا حميدًا في غيرها.

- يقول جان جاك رسو في كتابه«محاولة في أصل اللغات»في «الفصل الحادي عشر» : « رسلُ الإلهةِ الذين يكشفت عن الإلغاز المقدسةِ والحكماء الذين يَهبون القوانين للشعبِ والقُواد الذين يجرون الجمهورَ لابدّ أن يتكلموا العربية أو الفارسية ....

إنّك لترَى الّذي له بعضُ معرفةٍ بالغة العربيةِ يبتسمُ إذ يتصفحُ القرآن ، ولعمري ،إنّه لو أنصتَ إلى محمد[ﷺ] يقرأه بنفسِهِ في تلك اللغةِ البَليغة المُوقّعة ، وبذلك الصّوتِ الجهوريِّ المُقنعِ الّذي يستهوِي الأذنَ قبلَ أن يسْتهوِي القلبَ ،ولَو أنصتَ إذ لايتفكَ ينفُثُ في حكمه نبرةً وحماسًا لسَجدَ على الأرضِ من الرّهبةِ ثُمّ لناداهُ : ألا أيّها النبيّ الأعظم ،ألّا يارسولَ اللهِ خذنا إلى المجد والشّهادةِ ،نريد أنْ نَغلبَ أوْ نَموتَ في سَبيلك»

- ويقول وليم ورك: «إن للعربية لينا ومرونةً يُمكنها من التكيف وفقًا لمقتضيات العصر»

كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِى شَهْرِكُمْ هَذَا فِى بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ ». قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-. قَالَ « لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ».

يقول ابن منظور في «لسان العرب» : "قال أبو إسحق : الأَعْجَمُ الذي لا يُفْصِحُ ولا يُبَيِّنُ كلامَه وإن كانَ عَرَبيَّ النَّسبِ كزِيادٍ الأَعْجَمِ"

قال الحطيئة :

الشِّعرُ صَعْبٌ وطَويلٌ سُلَّمُه

إذا ارْتَقَى فيه الذي لا يَعْلَمُهْ

زَلَّتْ به إلى الحَضِيضِ قَدَمُهْ

والشِّعْرُ لا يَسْطِيعُه مَنْ يَظْلِمُهْ

يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَه فيُعجِمُهْ

"معناه يريد أَن يُبيِّنَه فيَجْعَلُه مُشْكِلاً لا بَيانَ له"

- ويقول وليم مرسيه الفرنسي : " العبارة العربية كالعود، إذا نقرت على أحد أوتاره رنت لديك جميع الأوتار وخفقت، ثم تحرك اللغة في أعماق النفس من وراء حدود المعنى المباشر موكبا من العواطف والصور".
- ويذهب المستشرق كارل بروكلمان الى أنّه قد: "بلغت العربية بفضل القرآن من الاتساع، مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا".
- ويقرر الفرنسي لويس ماسينيون أن "اللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات، فقد تفردت في طرق التعبير العلمي والفني".
- وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه :"كيف يستطيع الإنسان أن يُقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم، وسحرها الفريد؟ فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللغة".
- ويقول الألماني يوهان فك:"لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر".
- ويقول أيضًا :" إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة ، وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية والإسلامية رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية الفصحى لغة القرآن "
- وقال الإسباني فيلا سباز : اللغة العربية من أغنى لغات العالم بل هي أرقى من لغات أوروبا ؛ لأنها تتضمن كل أدوات التعبير في أصولها، في حين الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة، وإني لأعجب لفئة كثيرة من أبناء الشرق العربي يتظاهر أفرادها بتفهم الثقافات الغربية ويخدعون أنفسهم ليقال عنهم أنهم متمدنون.
- ويقول المستشرق بارثلمي هربلو: إن اللغة العربية أعظم اللغات آداباً وأسماها بلاغة وفصاحة وهي لغة الضاد.
- ويقول البلجيكي جورج سارتون:"إن اللغة العربية أسهل لغات العالم وأوضحها، فمن العبث إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل وتوضيح الواضح، فإذا فتحت أي خطاب فلن تجد صعوبة في قراءة أردأ خط به، وهذه هي طبيعة الكتابة العربية التي تتسم بالسهولة والوضوح".
- و يقول جون فرن:"إن مستقبل الأدب في العالم العربي هو اللغة الفصحى وحدها الزاخرة بالثروة والغنى والتراث وليست اللهجات العامية بلغة كيانية بل هي تحريف وتشويه للفصحى ولن تتمكن هذه اللهجات إطلاقا من اجتياز جدار التراث والفصحى".
- ويقول المستشرق جاك بيرك: اللغة العربية لغة المستقبل ولا شك أنه يموت غيرها وتبقى حية خالدة.

- ويقول جوته: "ربما لم يحدث في أي لغة هذا القدر من الانسجام بين الروح والكلمة والخط مثلما حدث في اللغة العربية، وإنه تناسق غريب في ظل جسد واحد".
- ويقول الأستاذ مرغليوت بجامعة أوكسفورد:"اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية وهي واحدة من ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليها غيرها."
- ويقُول المستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس يقول: "إن في الإسلام سندا هاما للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تماما بين جدران المعابد."
- ويقول الإلماني فريتاخ : « اللغة العربية أغني لغات العالم»
- ويقول إرنست الفرنسي :« اللغة العربية بدأت فجأة على غاية الكمال ،وهذا أغربُ ما وقع في تأريخ البشر ، فليس لها طفولةٌ ولا شيخوخة»

دعوى أنها بدأت فجاة فيها نظر، بل هي من أقدم لغات البشر،وربما كانت أول لسان تكلم به الإنسان .

- يقول الدكتور عبد المجيد الطيب عمر في كتابه « منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة: دراسة تقابلية»:

وجد أن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب، وذروة النمو والكمال، وكأنها لم تمر بما مرت به اللغات الأخرى من مراحل التخلق والتطور، حتى قال بعضهم بأنها هكذا كان انبثاقها إلهامًا، وظهورها إعجازًا وخرقًا لناموس تطور اللغات. ثم جاءت مرحلة نزول القرآن الكريم بها، فتعاطت مع تعاليم تلكم الرسالة الخالدة إكسير الحياة، وسر البقاء فخلدت وبقيت، واضمحل ومات ما سواها من لغات. ثم دلف الباحث إلي أصوات العربية، فوجد أن أهم ما يميزها ثباتها، واستقرارها المذهل؛ فهي لم تتغير ولم تتبدل على مر السنين وتعاقب الأجيال الناطقة بها، على حين أن بعض أصوات اللغات الأخرى تتبدل وتتحول بل وتختفي من نظامها الصوتي تمامًا. ثم إن أصوات اللغة العربية جاءت موزعة توزيعًا متوازنًا على أطول مدرج لجهاز نطقي عرفته لغة إنسانية، فتخرج واضحة متمايزة سهلة سلسة، وهذا نقيض ما يوجد في اللغات الأخرى التي قد يتكاثر خروج أصواتها من مخرج واحد، فتتقارب في نطقها وتأتي باهتة غامضة يصعب على متعلميها من غير بنيها إنتاجها وتمييزها.[بتصرف]

******

وثم أسفار وبحوثٌ ومقالات صنعت في بيان منزلة العربية بين اللغات، فصلت القول في خصائص العربية ،ومن تلك كتاب« منزلة اللغة العربية بين اللغات .دراسة تقابلية .تأليف :أدعبد

المجيد الطيب »نشر مركز البحث العلمي وإحياء التراث.الراسة العامة لشؤون الحرمين.السعودية ـ الطبعة الثانية عام ١٤٣٧هـ

وكتاب خصائص اللغة العربية .تأليف حبيب غزالة. المطبعة العصرية بمصر سنة ١٩٣٥م

من خصائص اللغة العربية .تأليف عبد العزيز بن إبراهيم العصلي .نشر دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

خصائص اللغة العربية لحبيب عز الدبك طبعة القاهرة ١٩٣٥م

مقال « اللغة العربية ومكانتها بين اللغات.أ.د: فرحان السليم»موقع "صيد الفوائد"

*****

المحور الثاني عشر

هل القرآن حجة على غير العربيّ؟

ذلك السؤال إنما يبعثُ عليه الظَنّ إن حجية القرآن على الإنسان منحصرة في عربية لسانه . وأن من ليس بعربي لا تقام عليه بهذا الحجة . وهذا فهم غير قويم

ليست حجية القرآن على الإنسان كل الإنسان عربيًّا أو غير عربيّ منحصرة في عربيّة بيانه ، وإلا لما دخل في الإسلامِ من ليس بعربيّ نسبًا أو من ليس بعارفٍ بالعربية ، وواقعُ الحالِ ناقضٌ ذلك، فالمسلمون مِن غيرالعرب نسبًا أو في ديار العرب إنما هم أكثر بكثيرٍ جدًا من المسلمين العربِ نسبًا أوالذين يقيمون في ديار العربِ أو يعرفون العربيةَ قبل إسلامهم ، وفي كلّ يوم يدخل في الإسلام أقوامٌ لا يعرفون العربية ، وعظم هؤلاء من غير العامة أو الفقراءِ المحتاجين أو المغلوب عليهم، كلا ففي أوربا وأمريكا يدخلُ في الإسلامِ أكثر ممّن يدخل فيه من الأمم الأدني تحضرًا .

هذا آيةٌ بيّنةٌ على أن حجية القرآن ليست بمنحصرة في عربيّة لسانِه وإلا لم يك حجةً على غير العربِ.

ثم إنّ حجيية بلاغةِ بيانه العربي على أعيان فصحاء العرب في زمن النّقاءِ اللساني : زمن المبعث هو بطرقِ اللزوم حجة على من دونهم عربًا أو غير عربٍ /طكا يقضي به العقل الفطريّ الجمعيّ

وكلّ شيْءٍ في القرآن حجة على الإنسان أيًا كان لسانه وزمناه ومكانُه ، فليس شيءٌ فيه إلّا وهو حجّة على الإنسان إلّا أنّ بعضًا أعمُ وأشملُ وأحكمُ وبعضُه دون ذلك .

وفوق ذلك كله فإنّ بلاغة القرآن لا تفني جميعها إذا ما ترجمت معانيه ترجمة دقيقةً إلى أي لغةٍ بشريةٍ ، بل يبقى بعضٌ من معالمِ بلاغته في نسخته المترجمة بدقةٍ إلى أي لغة، ذلك ما تراه في بلاغة أنساب معانيه: في بلاغة علاقات وترتيب معاني جمله وآياته ونجومه ومعاقده في كلّ سورةٍ، حيثُ ترَى منطقية الترتيبِ ،وتلاحظِ المعاني وتناديها وتآخذها ، ذلك معلمٌ جِدّ دقيق ولطيف وطريفٍ كلمّا زدته تبصرًا وتدبرًا زادك عطاء متجددًا مدهشًا،

وكذلك معلمُ أنساب السور وترتيبها،وهو معلم بالغ الدّقة من معالم بلاغة القرآن المعجزة، فليست بلاغة القرآن متوقفةً على ما تتحقق باللسان العربيّ ، نعم أظهر معالم بلاغته تتحقق في ما كان باللسان العربيّ .

والذين ليسوا بعربٍ ولا يعرفون العربية حين يدخلون الإسلام ويقرؤون معاني القرآن المترجمة إلى لغاتهم ، ثم إذا ما تعلموا العربية وقرؤوا القرآن بها وتدبّروا أدركوا فرق ما بين لسانهم واللسان العربيّ، فيدركون حكمة الله تعالى في أن أنزل القرآن بلسان عربيّ مبين، فإنزله بهذا اللسان إنما هو مطابقة حال مَن أُنزل عليه - صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – وحال من أنزل فيهم أولًا، وحال اللسان الذي أنزل بِه، فهو اللسان الأقدر على أن يصور دقائق لطائق معاني الهدي الإحسانية وطرائفها المكنوزة في بيانه .

جمْعةُ القول أنَّ القرآن حجةٌ بكلّ ما فيه على كل إنسان ، فلا عذر لأحدٍ أيًا كان لسانه وزمانه ومكانه في أن يدعي أنّه ليس بعربي إذا ما بلغة القرآن مترجمةً معانيه بلسانه الأعجمي.

والله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يقول: (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) [الزخرف]

تبصر قوله :(لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) وما فيه من تشريفٍ وتكليفٍ . فمن وجوه معنى قوله (وسَوْفَ تُسألون) أنكم تسؤولون عن تَبْلِيغِه إلى غيركم من الأعاجم ، وعن تقريبه إليهم، وعن تقريبهم إليْهِ بألسنَتِكم وألسنتهم . وعن تيسير تعلم لسان العربية لمن آمن به من غيرِ العربِ .

ومِن ثُمَّ أرَى أنّ مِن سبل الدعوة إلى الله تعالى وإخراج النَّاس من الظُّلماتِ إلى النّور أن نعمل على تيسير العربية على غيرِ العربِ ليقرؤوا القرآن بلسانه العربي ليطعموا من دقائق معاني

الهدىالإحسانية ولطائفها ، فيرتقوا في مقامات القرب ، بأعمار الحياةِ كونًا وإنسانًا بالسلام الاجتماعي والإخوة الإنسانية والعلم والحق والخير العميم المقيم.

المحور الثالث عشر

الله أعلم حيثُ يجعلُ رسالته

يعمدُ أستاذُنا الخطيب إلى تخليص الكليات التي فصلها في المحاور السابقة، وهذا مسلك حميدٌ حبذا اقتداء الباحثين والمؤلفين به، فيجعلون في خاتمة كلّ فصل تخلبصا لكليات ما فصل في في مباحث هذا الفصل .

= أكّد استاذنا أن القرآن في ذاته معجزة وأنَّ إعجازه قائم في الكلمات التي نزل بها.

وهذا حقٌ مبين، فكلّ شيءٍ في القرآن معجزٌ من جهة، ونورٌ وهدًى ورحمة وبشرى ، فأي شيءٍ أنت ناظره منه بفؤادك الرشيد السميعِ البصير أنت واجده معجزًا ومرشدًا إلى التي أحسن،ومخرجًا لك من الظلمات إلى النور.

= القرآن معجزة الإسلام ، وآيةٌ على صدق الرّسالة المحمدية وعمومها البشرية في كلّ زمان ومكان ولسان ،وبرغم من ذلك كان نزولها في أرض العربِ وعلى سيد خلق، وبلسان عربيّ هو كمال الحكمة،وكمال الرحمة،وكمال النعمة على البشرية، فحين نزل القرآن لم يكن في بني أدم من هو صالح أن ينزل عليه غير سيدنا محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – ولم يكن في الأرض قوم أولى من العرب أن ينزل فيهم، ،وليس في الزّمان والمكان زمان ومكان غير الزمان والمكان الذي نزل فيهما.

وهو ﷻ القائل (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[الأنعام:١٢٦]

ذهب أستاذُنا الخطيب إلى أنّ في اصطفاء كلمة «حيث» اتساعًا في المعنى ، فشمل الزمان والمكان والإنسان ، والسياقُ لا يساعد ما ذهبَ إليه أستاذنا .

وبعض أهل العلم لا يرى في «حيث» هنا دلالة على الظرفية : يقول الطاهر بن عاشور - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – في تأويله الآية : « لَيستْ حَيْثُ هُنَا ظَرْفًا بَلْ هِيَ اسْمٌ لِلْمَكَانِ مُجَرَّدٌ عَنِ الظَّرْفِيَّةِ، لِأَنَّ

حَيْثُ ظَرْفٌ مُتَصَرِّفٌ، عَلَى رَأْيِ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ النُّحَاةِ، فَهِيَ هُنَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بِنَزْعِ الْخَافِضِ وَهُوَ الْبَاءُ، لِأَنَّ أَعْلَمَ اسْمُ تَفْضِيلٍ لَا يَنْصِبُ الْمَفْعُولَ»([1])

= وممّا انتهى إليه أستاذنا الخطيب أنّ الشّعر الجاهلي هو مناط النّظر في معرضِ التّحدّي ، فما بَقي منه في ذاكرةِ العرب هو أجودُه ؛ ليكون فيه حين يناظر بما جاء به القرآن يوقم كلُّ نَصيفٍ أنّ هذا الشعر الذي ليس أجود منه في الإبداع البشري لا يثبتُ أما الإعجاز البياني للقرآن،وقد علمت العرب ذلك،ولذا لم يجرؤوا أن يزعموا أن ما أبدعه شعراؤهم كمثل سورة من القرآن ، فقد كانوا يخشون معرة الجهل والكذب في البيان الذي هو شامتهم بين الأمم

وهذا آية على أن أمجد ما يبدعه الإنسان من البيان إنما الشعر الجاهلي فوقه .

وفي هذا حثّ على أن يكون لمن شاء أن يكون ذا قدم في لسان العربية، وفي فقه بيان القرآن اعتناءً بالغ بالشعر الجاهلي رواية ودراية وتذوقًا .

يقُول أستاذنا :« كان هذا الأدب وهذا الشعر غاية ما يُمكنُ أن يرقَى إليْهِ فنّ القولِ في مجالِ العمل الإنساميّ في اسْتصحابِ الكلمةِ والتعامل بها»([2])

ويقُول شيخنا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - :«... الحقيقةُ هي إجماعُ أهل العلم بالشعرِ من عُلماءِ الأمّةِ على أنَّ شَعر الجاهليةِ وبيانِ العربيةِ في عصرِ المبعثِ قد بلغَ ذِروةَ ما يُمكنُ أن يَصلَ إلَيْهِ البيانُ الإنسانيّ ،وأنّ شِعرَ هذا العصرِ الّذِي نُسمّسهِ " العصرَ الجاهليّ" هو الأصلُ ،والرافدُ للشعر العربيّ فِي العصورِ الّتي تلت الْجاهليةِ إلى يومنا هذا،وأنّ من يُحسنُ فهمَ الشعرِ ويصبر عَلَى مراجعتِهِ لا يَترَدَّدُ فِي القَطع بأنَّ شِعرَ الجهليّةِ هُو أصفَى شعرِ العربيّةِ وأسخاهُ وأسراهُ وأنّه لايلتبسُ بالشّعر الذي جاء بعده ؛لأنَّ له مِيسَمًا يدلُّ عليْهِ.

ويؤكّدُ هذا الّذي يَجدُه دارسُ هذا الشعر أنّ التحدّي بالإعجازِ البيانيِّ لِكتابِ اللهِ المُنزَلِ كان موجهًا إلى هذا الشعرِ، يستوي في ذلك شعر زمن المبعثِ كشعرِ زهيرٍ والنابغةِ والأعشَى والشعرُ الذي سبق زمن المبعثِ كشعرِ طَرفَةَ وامرئ القيسِ وعبيد وأوس ؛لأنَّ التحدّي كان أنيأتي هم بمثلِه من كلامهم أو ممّا يحفظونه فِي صدورِهم من كلامٍ سَبقوهم.

وقد أجمع أهل العلمِ بالبيانِ والشّعرِ أنّ عجزَ هذا الجيلِ حجّةٌ على عجزِ من يأتي بعدهم من العربِ وغيرِ العربِ إلى أن ينفخ في الصورِ ،ولا يجوز في عقلٍ أن يكونَ عجزهم حجة على غيرهم

---

[1]) التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر – تونس. سنة: ١٩٨٤ م ج: ٨-أص ٥٤
وانظر معه . دراسات لأسلوب القرآن الكريمتأليف أستاذنا الشيخ: محمد عبد الخالق عضيمة (ت ١٤٠٤ هـ) تصدير: محمود محمد شاكرالناشر: دار الحديث، القاهرة .ج:٧ص ١٣٧

[2]) الإعجاز في دراسات السابقين،ص ١٤٠

ما لم يكونوا قد تفرّدوا في هذا الباب واستولوا على الأمد فيه،وأنّه لن يأتي بعدهم من ينازعهم... »([1])

المحور الرابع عشر

ما هو الإعجـاز في القرآن ؟

سؤالٌ يطرحه أستاذنا الخطيب ليبين ما بين آياتِ الأنبياء قبل سيدنا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – ومعجزته :«القرآن» ،وليشير إلى تعدد وجوه إعجاز القرآن القريمِ تعددًا يتجدد على مر الزمان ، فالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – يرينا معالمَ من إعجاز كتابه القرآن في كلّ عصر لم تكن يعلمها من كان في العصور السوابق ، فيتجدد التحدّي،ويتجدد اليقين بأن القرآن كلمةُ الله تعالى التي أرسل بها جبريل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - على خاتم رسله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ –

= يؤسس أستاذنا كلامه هنا على أن القرآن هو المعجزة الخالدة الوحيدة لسيدنا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - لما اقترن به من التحدّي لكل ذي عقلٍ ولسانٍ ، فهو الآية المعجزة التي تؤسس الإيمان واليقين الراسخ بأنّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – هو رسول الله تعالى،وأنّه خاتم الرسل، وأنه للناس كافة في كل عصر ومصر إلى قيام الساعة.

وجلي لا يخفى أن لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - آياتٍ أخرَ عديدةً لم يتحد بها، مضت مع الزمان،ولم يبق لنا منها في زماننا إلا النبأ اليقين بها، فنحن بها مؤمنون،وهي آياتٌ تؤطد الإيمان وتجدده .

فهو - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – أُوتي كتابًا هو معجزة وهداية للحسنى في حركةِ الإنسانِ في هذه الحياة ، وأُوتي آياتٍ هي معجزات .

أمّا الأنبياء من قبله فقد أوتوا ُياتٍ معجزات،ولم يُؤتوا كتابًا،والرسل أوتوا آياتٍ وكتابًا لم يقع به التحدي كان القرآن وكان منحصرًا في الهداية والإرشاد والإخراج من الظلمات إلى النور.

= آيات الأنبياء والرسل من قبل رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – كان ادراك الإعجاز بها قريبًا ، لا يتطلب إلا مشاهدتها ، ليس فيها ما يحتاج إلى أعمال عقلٍ وتبصر

---

[1]) الشعر الجاهلي .دراسة في منازع الشعراء. تأليف شيخنا محمد أبي موسى- مكتبة وهبة – القاهرة. (ط:١) عام: ١٤٢٩هـ. ص: ٦-٧

ليدرك ما فيها من إعجاز، فمجرد رؤية عصا موسى - عَلَيْهِ السَّلامُ – قد انقلبت حية، يتحقق إدراك المعجزة ،ولا يحتاج العقل إلى تفكير في وجه إعجازها،وكذلك بقية آياتِ الأنبياءِ والرسل من قبل سيدنا محمدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - أما معجزته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - :«القرآن» فإن إدراك إعجازها يحتاج إلى تبصر ،وإلى أن يكون متلقيها ذا علم بلسان العربيةِ ،وأن يناظر كل ما جاءت به البشرية من بيان ببيانه ليتبيّن له ما في هذا القرآن من إعجاز . فهو الآية العقلية التي تخاطب في الإنسان ما تفرج به من بين الخلائق)العقل)

وهو الآية الوحيدة التي حملت العباد إلى أن يُعْمِلوا ما مَيزهم به الله تعالى عن سائر خلقه:«العقل»

وهو الآية التي تحثهم على أن يعتنوا بما أنعم به الله تعالى عليهم وخصهم به، ليكون ذلك الاعتناء شكرًا عمليًا لله تعالى، وبهذا يحمل الناس على ألّ يجعلوا لأحدٍ من الخلائق غيرهم سلطانًا عليهم، فهم الأعلي وهم الأكرم. فليس لغير الله تعالى سلطانٌ عليهم ،وليس أحدٌ من الخلائق أهل لأن يرجى ويطمع فيه أوْ يخشى ويرهب ، فالأمر كله لله ربّ العالمين .

كل ذلك وكثيرٌ غيره ثمرة أن كانت معجزةُ سيّدنا رسولِ اللهِ محمّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – معجزةً عقليَةً تُخاطبُ أعزَّ ما في الإنسان «العقل» وهو الذي به كان إنسانًا.

= لما كانت آياتُ الرّسلِ والأنبياءِ قبلَ سيّدنا محمّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – آياتٍ حسيّةً لَم تكن دَلالتُها على الإعجازِ المُصدِّق إنباءَ الأنبياءِ أنّهم مِن عندِ الله تعالى ذاتَ وجوهٍ ، ولم تكن مقتضياتٍ للتفكير، فكان النّاسُ في إدراكِها سواء .

= لما كانت معجزة سيدنا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَسَلَّمَ – معجزة عقلية «بيانية علمية» كان إعجازها ذا وجوه عديدة بل كانت وجوهه لاتتناهى تتجدّد بتجدّد الأعصار ، ممّا جعل الناس بحاجةٍ بالغةٍ إلى أعمال عقولهم في كل وقت لإدراك وجوه هذا الإعجاز.

القرآن قد قرر ذلك في آيات كثيرة، ولذلك تراه في آيات كثيرة يختمها بقوله تعالى :(لعلهم يتذكرون)(لعلكم تتذكرون)(لعلهم يعقلون) (لعلكم تعقلون) (لعلهم يتفكرون) (لعلكم تتفكرون) (لعلهم يعلمون) (لعلهم يهتدون) (لعلكم تهتدون)

والتّذكر والتّفكر والتّعقل والعلم والاهتداء كل ذلك لا يُمكن أنيتحققإلا بإعمال العقل ، ولا يمكن أن يتحقق إلّا إذا كان ما في القرآن صالحٌ لأن يمارس فيه ذلك في كلّ عصرٍ ومصرٍ ، فلا يكونُ عصرٌ أو مصر لا يَجِدُ فيه أهلُه ما يُمارسون هذه الأعمال العقلية فيه .وهذا من فضل الله على النّاس ولكن أكثر النّاسِ لايشكرون .

= لهذا كله تنوعت وتعددت وجوه إعجاز القرآن ، وهي متفاوتة في شمولها كلّ آية أو كلّ نجم أو معقد أو سورة، فمن الوجوه ما يكون في آيات دون آياتٍ ومنها ما يكون في نجم دون نجمٍ، ومنها ما هو قائمٌ في كلّ كلمة في سياقها وتركيبها، وفي كل آيةٍ ونجمٍ ومعقد وسورة وحزبٍ .

إنّك لن تجد كلمةً في سياقها فضلا عن جملة وما فوقها خلاءً من أكثر من وجه ممّا يجعل استبصار هذه الوجوه أمرًا فوق طاقة البشر الإحاطة به، فالإحاطة بها وجوه من وجوه إعجازه، ولما كان كلّ وجه نعمة من نعم الله تعالى كان ذلك داخلاً في التحدي القائم في قوله تعالى :(وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّار}[إبراهيم:٣٤] {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيم}[النحل:١٨][(١)

تم بحمـد الله تعالى .

---

(١) من الإعجاز أن كانت آية سورة إبراهيم فاصلتها(إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّار) وآية سورة "النحل" فاصلتها:(إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيم}

لإدراك ذلك راجع" ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل.

المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (ت: ٧٠٨هـ) وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي ،الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ج ٢ ص ٢٨٧ – ٢٨٨

وتفسيرنظم الدرر في تناسب الآيات والسور . برهان الدين البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .ج:١٠ ص:٤٢٢- ٤٢٣: ج:١١ص ١٣٠

بيانٌ للطلاب والطالبات

الأوراقُ الّتي بين يديك ليست بديلاً عن ما في كتاب أستاذنا الشيخ عبد الكريم الخطيب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - :«إعجاز القرآن : الإعجاز في دراساتِ السابقين» بل هو ضميمٌ إليه ، فحقّ عليْك أن تقرأ ما كتب أستاذنا الخطيب أوّلا قراءة تبصرِ حتى يسكنك ويعمُرك، ويبث فيك دقائقه ثم تقرأ هذه الأوراق التي بين يديك، وتضيف ما فيها إلى فؤادك الرشيد، فإذا تضلعت منهما، اتخذ لنفسك قولًا يتولد منهما، تصوغه بنفسك ، وتسكب فيه ذنوبًا من تفكيرك وتعبيرك، فتجعله مستندك الذي تهود إليه وتفيء، ولك أن تضيف إليه من أي مرجع أنت تراه أهلًا لأن تضيف ، المهم الا تعتقل فؤادك فيما كتبه إستاذنا الخطيب وما كتبتُه ، فإن لك أن تضيف من العلم في هذه القضايا والمسائل ما تراه مجيدًا حميدًا

وحقّ عليك أن تطلع على ما قاله الأستاذ المحاضر لأقرانك في قطاع «طنطا»و«اسيوط» وأن ترسل إليهم هذه الأوراق بحلقاتها الثلاث ليكون لكل طالب وطالبة منكم ما قال الأستاذ في طنطا،والأستاذ في أسيوط وما قلت فيتضلع من ذلك كله ، فلا يأتيك في الاختبار ما لم يكن لك به علمٌ. قد نصحت ، فلا تغفل عما أسديته لك .

« احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ ».

والله تعالى هو المستعان على طاعته وهو المستجذي عونه وتسديدُه ورضوانُه و صَلَّى اللهُ على سيدنا محمّد وَعَلَى آله وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - والحمد لله رب العالمين

وكتبه

محمود توفيق محمّد سعد القاضي

القاهرة – مدينة الشروق

الاثنين: الثامن من شهر رمضان عام ١٤٤٥هـ